مكة واستغفرت لك، وسألت الله لك عفوًا وعافية في المسجد الشريف، وأنا أُهدي إليك هذه السبحة على شرط ألا تفارقك عن إرادة منك، وعلى شرط أن تُدير ذكر الله عليها مرة في كل يوم وتهب ثواب هذا الذكر لوالدي رحمه الله. فيكبُّ عليٌّ على يد الشيخ لثمًا وتقبيلًا، ويأخذ السبحة فيقبلها مرة ومرة، وأصحاب الشيخ ينظرون إليه ويقول بعضهم لبعض همسًا: لو قال الشيخ هذه المقالة للحاج مسعود لأجهش بالبكاء، ولكن انظروا إلى علي ما أقسى قلبه! إن وجهه ليبسم كأن الشيخ يداعبه.

ويقبل خالد لزيارة الشيخ فيمن أقبل، فيلقاه الشيخ لقاء حسنًا ويمنحه يده ليقبلها، ثم يقول له: إذا فرغنا من هذه الزيارات فالقني فإن لي معك حديثًا. ويسعى خالد إلى الشيخ بعد أيام، فإذا رآه الشيخ أدناه واستبقاه، حتى إذا خلا إليه قال له: ألم أعلم أن أبي كان قد خطب لك بنت الحاج مسعود؟ قال خالد: بلى. قال الشيخ: فأين أنت من هذه الخطبة؟ قال خالد في شيء من استحياء: فإن الحول لم يحل على موت عبد الرحمن. قال الشيخ: وصلتك رحمٌ يا بني وبارك الله عليك! ولكن لنقرأ الفاتحة فأمَّا الزواج وزفاف أهلك إليك فاضرب لهما ما شئت من موعد، و«مُنَى» ما زالت بعد صبية. ثم صفق بيديه، فلما أقبل الخادم قال له الشيخ: ادع لي الحاج مسعودًا. وأقبل الحاج مسعود، فاستدناه الشيخ حتى أجلسه على يمينه على كره منه، فقد كان الحاج مسعود يحرص دائمًا على أن يقوم بين يدي شيخه الكبير ثم بين يدي شيخه الصغير، لا يجلس إلا مأمورًا، فلما استدناه الشيخ وأجلسه عن يمينه استعظم ذلك وأخذت دموعه تسيل. قال الشيخ: أما ترحمنا من دموعك هذه آخر الدهر! كفكفها ولو ساعة، ابسط يدك فقد أَنَى لنا أن ننفذ وصية الشيخ. ثم بَسَطَ الحاج مسعود يده وبَسَطَ الشيخ يده فتصافحا، وقرأ الفاتحة الثلاثة وإن الحاج مسعودًا لينتحب بقراءته انتحابًا.